Conference Proceedings: Enhancing the Role of Islamic, Social, and Human Studies in Building Society, Volume 23, July 2026.

ISSN(Print): 1813-4521 OnLine ISSN:2663-7502
Journal Of the Iraqia University
available online at
https://iasj.rdd.edu.iq/journals/journal/view/247

كتاب الآداب لجعفر بن شمس الخلافة دراسة فنية وموضوعية مع وقفة تحليلية في باب الذم

م.د. مراد عبد الستار خليفة

المديرية العامة لتربية صلاح الدين

Dr. Murad Abdulsattar Khalif
Directorate General of Salahuddin
Muradaljpuri@gmail.com

Abstract

The books of literature are full of many heritage and knowledge that develop the seeker of science and knowledge, but the book of literature was chosen in our study by following the life of this author, who is considered one of the most prominent sons of his time: being a poet, commander of the army, calligraphers and polite: We thought that the study in this book and specifically in the subject of disbelief, and was part of the study plan that dealt with the dissonthment in three places, including: the sadness, the deps of the occult, and the sluring of the elder, we studied aspects of the author's use of evidence and how to employ it.The research consists of a preface and two papers, in which we employed the linguistic meaning of the word "dissonance" and chose three dictionaries for study: For the clarity of the subject, the first topic included the definition of the book and its purpose and we entered into the topics of the dissonance in sequence in its three places, and the second topic used the number of evidences and their importance and how to employ them and sealed them with a conclusion and a list of the most important sources, and thank God and prayer and peace on the Messenger of Allah

Blame_Etiquette_Book_Evidence._

المستخلص

إنّ كتب الأدب تزخر بتراث ومعارف عديدة تنمي طالب العلم والمعرفة, ولكن وقع الاختيار على كتاب الآداب لجعفر بن شمس الخلافة مجد الملك صاحب الكتاب (٥٤٣ هـ – ٦٢٢ هـ) (١١٤٨ م– ١٢٢٥ م), وهو جعفر بن محمد (شمس الخلافة) ابن المختار الأفضلي, أبو الفضل الملقّب مجد الملك نسبته إلى الأفضل (أمير الجيوش في مصر), في دراستنا من خلال تتبعنا لحياة هذا المؤلف الذي يعدّ من أبرز أبناء عصره: ولكونه شاعرًا, وقائدًا للجيش وخطاطا ومؤدبًا: فارتأينا أن تكون الدراسة في هذا الكتاب وتحديداً في موضوع الذم, وكان ضمن خطة الدراسة التي تناولت الذمّ في ثلاثة مواضع منها: ذم الحسد, وذم الغيبة, وذم الكِبر, فدرسنا جوانب استخدام الكاتب للشواهد وكيفية توظيفها.يعدّ ابن شمس الخلافة من أحد الشعراء المبدعين في العصر الأيوبي, وكان مُقربًا من السلطان صلاح الدين الأيوبي وأحد أمراءه فامتدحه بما عنده من ثقافة وأدب وبديع من خلال تأثره بكتب الأدب والتراجم والتاريخ من مثل كتاب الآداب الذي يشابه به إلى حد كبير كتاب خريدة القصر وجريدة العصر لعماد الدين الاصبهاني ت (٥٩٧) هـ, والذي عاصره في زمنه وغيرهما من الكتب ذكرها محقق ديوانه سعود عبد الجابر الذي تسنى له كما يورد لنا في عمله أنّه جمع أكبر عددٍ من شعره وذلك في مختلف ما وقع في يده من مصادر ويقع هذا الشعر المجموع في مائة وخمس وستين قصيدة ومقطوعة وتفننه في مختلف الفنون الشعرية التي جادت بها قريحته, وديوانه متكون من (٢٤٦) صفحة يحتوي على جزأين أو فصلين, فصلٌ في حياته والآخر نص الديوان الذي حقّقه الدكتور سعود محمود عبد الجابر, الأستاذ بجامعة الشرق الأوسط. ولقد عقدت لهذا البحث مبحثين اثنين يسبقهما مقدمة وتمهيد وتقفوهما قائمة تحوي مصادر ومراجع هذه الدراسة, وقد خصص التمهيد للوقوف على المعنى اللغوي للفظة الذم واخترنا ثلاثة معاجم للدراسة: لوضوح الموضوع, وكانت حصة المبحث الأول من هذه الدراسة هي التعريف بالكتاب وغايته ومدخلًا في موضوعات الذم في مواضعه الثلاثة, والمبحث الثاني فقد تناولت فيه عدد الشواهد وأهميتها وكيفية توظيفها, ثم ذَيَّلْنا البحث بقائمة من المصادر والمراجع المُعتَمَدَة فيها. الذم _ الآداب _ الكتاب_ الشواهد_ الأُسلوب

المبـــحث الأول التعريف بالكتاب وصاحبه

هو كتاب الآداب لصاحبه جعفر بن شمس الخلافة مجد الملك, (٥٤٣ هـ – ٦٢٢ هـ) (١١٤ م– ١٢٢٥ م), وهو جعفر بن محمد (شمس الخلافة) ابن المختار الأفضلي, أبو الفضل الملقّب مجد الملك شاعر من أهل مصر, نسبته إلى الأفضل (أمير الجيوش في مصر), له الآداب النافعة في الألفاظ المختارة الجامعة وديوان شعر[١] وله تواليف جمع فيها أشياء لطيفة دلّت على جودة اختياره.[٢]يعدّ ابن شمس الخلافة واحدًا من الشعراء المبدعين في العصر الأيوبي, وكان مُقربًا من السلطان صلاح الدين الأيوبي وأحد أمرائه فامتدحه بما عنده من الثقافة وأدب وبديع من خلال تأثره بكتب الأدب والتراجم والتاريخ من مثل كتاب الآداب الذي يُشابه به إلى حد كبير كتاب خريدة القصر وجريدة العصر لعماد الدين الاصبهاني ت (٥٩٧) هـ, والذي عاصره في زمنه وغيرهما من الكتب ذكرها محقق ديوانه سعود عبد الجابر الذي تسنى له كما يورد لنا في عمله أنّه جمع أكبر عددٍ من شعره وذلك في مختلف ما وقع في يده من مصادر ويقع هذا الشعر المجموع في مائة وخمس وستين قصيدة ومقطوعة وتفننه في مختلف الفنون الشعرية التي جادت بها قريحته, وديوانه متكون من (٢٤٦) صفحة يحتوي على جزأين أو فصلين, فصلٌ في حياته والآخر نص الديوان الذي حقّقه الدكتور سعود محمود عبد الجابر, الأستاذ بجامعة الشرق الأوسط.[٣]أما لقبه فجاء نسبة إلى الأفضل أمر الجيوش بمصر.[٤]

أولا : التعريف بالكتاب

الكتاب موسوم باسم كتاب الآداب لجعفر بن شمس الخلافة مجد الملك هذا ما تنص عليه العتبة الأولى على طبعة الغلاف, يليها عتبة المصحح والضابط لألفاظه وتفسيرها محمد أمين الخانجي, مكتبة الخانجي, طبع الطبعة الأولى عام (١٣٤٩ هـ – ١٩٣١ م) وطُبع طبعة ثانية عام (١٤١٤ هـ – ١٩٩٣ م) وقد طبع هذا الكتاب من ضمن عشر كتب طبعت تحت مسمى آثار العراق, طبع هذا الكتاب عن نسخة الفاضل الحاج أحمد الفندي ابن قاسم آغا الجليلي من أعيان بلدة الموصل بالعراق, وهذا ما ورد ذكره في الكتاب في الصفحة التي سبقت المقدمة, وقد قدّم هذا الكتاب إلى المملكتين: العراق ومصر وأدباءهما, إذ يعد هذا الكتاب رغم صغر حجمه باكورة لأهل المعرفة والعلم والتأدب: لأنه يحمل صفات المتأدبين والوصايا التي تُؤدّب المرء وتسمو بها أخلاقه, ولقد قدّم جعفر بن شمس الخلافة هذا الكتاب إلى (القاضي الفاضل) وقد قام الناشر والمحقق بدوره بإهدائه كما سبق ذكر ذلك إلى أدباء مصر والعراق, فلولا أهمية وجمال هذا الكتاب لما أهدي لمرتين إذ يعد جوهرة نادرة أعادت صياغتها بطرقة عصرية تتناسب ومقتضى الحال والمجتمع.وقد اعتنى محمد أمين الخانجي بإيراد الفهارس الخاصة بمفاصل موضوعات الكتاب في بداية الكتاب ورتب موضوعاته حسب ما أوردها كاتبها بعناية وجعل فهرسة للأعلام بعد فهرس الموضوعات.ولقد ورد في هذا الكتاب تصدير أو ملخص عن ابن خلكان في كتاب وفيات الأعيان عن حياة جعفر بن شمس الخلافة فيقول: "هو أبو الفضل جعفر بن شمس الخلافة ... كان فاضلا حسن الخط وكتب بخطه كثيرا".[٥]ونقل محمد أمين الخانجي أبياتا من أشعاره نورد منها :

هي شدّةٌ يأتي الرخاء عقيبها وأسىً يبشر بالسرور العاجل

وإذا نظرت فإنّ بؤساً زائلا للمرء خير من نعيم زائلِ [٦]

ونصُ هذه الأبيات يدل على الحكمة وسبيل ذلك من خلال المعنى, وتعد هذه أجمل الوصايا التي يقدمها للقارئ, فهي إن دلت فتدل على قناعة تامة بجود الله وكرمه.وله أبيات أخرى في المدح, مدح فيها الوزير ابن شكر الصفي أبو محمد عبدالله بن علي الذي يعرف بابن شكر وزير الملك العادل وولده الملك كامل – رحمهما الله تعالى إذ يقول:

مدحتك ألسنة الأنام مخافة وشاهدت لك بالثناء الأحسن

أنثري الزمان مؤخرا في مدني حتى أعيش إلى انطلاق الألسن

يتألف هذا الكتاب من خمسة أبواب هي: باب الحكمة من النثر, وباب الفصول القصار من البلاغة والحكمة, وباب الحكمة من الشعر, وباب الأبيات المفردة للأمثال, وباب إعجاز الآيات ويتكون من خمسة وأربعين فصلاً مقسمة على الأبواب الخمسة المذكورة سابقا وتتباين في التوزيع بحسب الموضوعات التي تحتويها.

ثانياً : غاية الكتاب ومحتواه

كتاب الآداب لجعفر بن شمس الخلافة الشاعر وقائد الجيش والخطاط والمؤدب, هو هدية تقدم بها إلى القاضي الفاضل وهو أبو علي عبدالرحيم بن القاضي الأشرف بهاء الدين, وهذا الكتاب مؤلف من (١٧٨) صفحة يتحدث من خلالها المؤلف عن موضوعات مختلفة في الشعر والنثر والحكمة والأمثال, أي أنّه كتاب أدبي بامتياز: لأنه اختار أدقّ وأجمل الموضوعات الأدبية وتطرق بعد ذلك إلى ما يمدح وما يذم من أعمال المرء.

ويعد ابن شمس الخلافة واسع الثقافة والأفق, إذ تطرق إلى الحكمة عند اليونان وكما هو معلوم فإنّ الترجمة من اللغات الباقية لم تدخل بلاد العرب إلّا في العصر العباسي, وذلك بسبب تداخل الأمم, ولكثرة علمه أخذ جانبا عن الحكمة عند اليونان, وجوانب عن الملوك وأحوالهم وأبرز القواعد التي يجب مراعاتها عند مصاحبتك للسلطان وعين فصلاً عن الألفاظ التي يتمثل بها القرآن الكريم وباب ذكر فيه المأثور من الحكمة عن الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه, وفصل في كتب الأدب والحض عليه, وباب في انتظار الفرج من أهل الشدّة والحرج, وفصول عديدة تتحدث عن مراعاة أخلاقيات المرء وعلى ما يجب أن يتحلى به المرء وما يجب أن ينهى النفس عنه: لأنّ النفس أمّارة بالسوء, وأفرد فصلا في الوعظيات وهي ما يجب أن يقتدي به أبناء الأمة الإسلامية وهذا سنتطرق إليه في باب الذم ومواضعه.

ثالثا : دراسة نقدية في موضوع الذم ضمن كتاب الآداب لجعفر بن شمس الخلافة

نتطرق إلى موضوع الذم في كتابه, وسنأخذ ثلاثة مفاصل من الذم وهي :

١. في ذم الحسد
٢. في ذم الغيبة
٣. في ذم الكبر

إنّ أسلوب الكاتب كان يدور حول محور نقل الأخبار بجزئية مقتطعة من الرواية أي أنّه يوظف الخبر أو النص اللازم نقلة في صلب الموضوع, ونلاحظ أنّه يوظف هذه النصوص دون الرجوع إلى مرجعيات النص, أي لا يذكر من أين له هذه النصوص ودون الإشارة إلى أصحابها, وإن في ذكر صاحبها أغفل سنين الوفاة لهم؛ ويرجع السبب في ذلك إلى أنّ أغلب الذين أخذ عنهم القول هم من المعاصرين له أو من أبناء جيله والمقربين إليه؛ ولذلك فإن التوظيف كان يسري بصورة متسلسلة دون الرجوع إلى مصادر أو وقت النص.إنّ موضوعات الكتاب محددة فالموضوع الواحد متضمن على عدة نقاط أساسية ومحددة لا يخرج الكاتب عنها في التوظيف المناسب للنصوص والشواهد, وهذا يعطي صلابة للموضوع أكثر مما هو متوقع؛ وذلك لأنّ الكاتب لا يستطرد في حديثه وإنّما يقوم بالتركيز على فكرة واحدة, ولأنّ الموضوع موثوق ومتداول لكثرة الشواهد التي فيه ولوجود تجارب سابقة وعيّنات حيّة نتج عن ذلك يقين تام بأهمّية هذا الموضوع وأهمية الكتابة فيه.

ذم الحسد: هو شيء موجود ومتوارث وهو إحدى العادات والصفات السيئة التي نهى عنها الإسلام وأمر بالترك لهذه الصفات القبيحة التي تحطُّ من شأن صاحبها وتجعله محل ازدراء وحذر من البعض, قَالَ تَعَالَى:﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥ ﴾ الفلق: ١ - ٥, وهي إحدى السور التي رغم قصرها إنّما تُعَدّ من السور المتلازمة للإنسان في ذكرها وفي التنزيل الكثير من السور والآيات القرآنية التي تجعل النّصّ ونستشهد به, وقوله﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١٠٩ ﴾ البقرة: ١٠٩, وقوله– صلى الله عليه وسلّم: " لا حسد إلا في اثنتين, رجلٌ أتاه اللهُ مالاً فسلّطه على هلكتِه في الحقّ, ورجلٌ أتاه اللهُ حكمةً فهو يقضي بها ويعلّمها)[٧] , وعن سالم عن أُبيّه قال : قال رسول الله : "لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النّهار, ورجلٌ آتاه الله مالًا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النّهار ".[٨]ويستهل الكاتب حديثه عن الحسد بقول أمير المؤمنين ويعسوب الدين الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه, الذي نصه: "لا راحة للحسود, ولا أخاً لملكٍ, ولا مُحبّ لسيّء الخلق",[٩] وما يحويه هذا القول الثائر من معان دلالية وذاتية جميلة يركز فيها على ثلاث خصالٍ يجب على المرء تركها والابتعاد عنها, ابتدأها بالحسود وعدم الراحة له في حياته, لأنّه سيستهلك وقته في مراقبة وحسد غيره, ولا أخًا لملك, أي أنّ الملك يجب أن لا يميل إلى رأي أو فإنّه إمام بين النّاسِ, ولا محبّ لسيء الخلق أي أنّ سيء الخلق والأخلاق لا يحبّه أحدٌ ولا يودّون قربه.إنّ أغلب النّصوص التي استشهد بها في النصّ تتفاوت في المعاني والرؤية الواحدة للموضوع؛ فمرّة بصيغة عدم الارتياح, ومرّةً أخرى بصيغة العدوّ, ومرّة يجعله ظالماً, وهنا يجعل الباب مفتوحًا للتأويلات والاستدراكات؛ لأنه يجعل منه موضوعًا عامًا غير خاصّ بفئةٍ خاصّةٍ من الحاسدين, وهذا يرجع إلى سعة موضوع الحسد في ذاته, ويذكر في نصّ كتابه أنّه وجد كتابٍ لجعفر بن يحيى بعد أسطر كتبت بالذهبِ نصّها يقول: " الرزق مقسوم, والحريص محروم, والبخيل مذموم, والحسود مغموم ",[١٠] فكان للحسودِ نصيب من هذه السطور ووقعت عليه صفة الغمّ, أي أن كلّ حسودٍ مغموم لا ينعم بحياته؛ لفقدانه لذّة العيش في مراقبة الناس وحسده الدائم لهم, ويذكر أيضاً: " وقيل للحسن البصري: أيحسد المؤمن أخاه ؟ فقيل له: أنسيتَ إخوة يوسف ؟".[١١]

ثانيا: في ذم الغيبة: المعنى اللغوي للغيبة يبدأ عند الجذر اللغوي للّفظة المفردة من الثلاثي: غَيَبَ, قال أحمد مختار عمر في المعجم الموسوعي لألفاظ القرآن الكريم: "غيبَ, اغتاب, يغتاب, يذكر غيره في غيبته بما يكره",[١٢] وجاء في قوله آتٍ﴿ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتًا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ١٢ ﴾ الحجرات: ١٢ولعلّ الغيبة بذلك تكون أشدّ جرمًا من الربا في مواجهته استعمال أمر الغيبة دون إدراك حجم الذنب والاستخفاف بعثرات اللسان وهي رسالة موجهة لمن فقدوا تحديد معايير الحرام وتقدير دركاته, فاجتنبوا ذنوبًا عظيمةً وهم يرتكبون ذنوبًا أعظم؛ قال رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلّم: " إيّاكم والغيبة, فإنّ الغيبة أشدّ من الزنا, إنّ الرجل, إنّ الرجل ليزني فيتوب, فيتوب الله عليه, وإنّ صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه ".[١٣]وبالنظر إلى ما قاله وجمعه في نصّه كتاب الآداب ننظر في نص الغيبة فنرى جمالية الاستشهاد بقوله تعالى: (ولا يغتب بعضُكم ...) فالموضوع في بادئ الأمر ينص نصّا صريحًا شاملًا على اجتناب الغيبة وذمّها؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى حرمها في كتابه والذي يعد دستور المسلم وشريعته وهنا نلحظ أنّ الكاتب أبدع في اختيار هذا النّص القرآني الشريف, ويردفه بحديث للرسول – صلى الله عليه وسلّم قائلاً: "ما النار في اليبس بأسرع من الغيبة في حسنات العبد".[١٤] إنّ الاستدلال بالقرآن الكريم في بداية النّص يضفي جمالية خاصة على الموضوع وبدوره يجعل القارئ يرى أنّ الكاتب مثقف ثقافة دينية جميلة ومُلمّ بأمور الدين, وهذا ما يجعل شواهد النّص تتمثل بالاستقامة منذ بدايتها؛ لأنّها تتسلسل الأفكار تباعاً داخل الفكرة الواحدة, فأجاد جعفر بن شمس الخلافة في اختياره وتوظيفه للشواهد؛ إذ أنَّ الآية الكريمة جعلت النص أكثر اتّساقا وصلابة, واستدلاله بعد ذلك بقول الرسول الكريم ويتبع ذلك قول عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – بقوله: " إياكم وذكر الناس فإنّه داءٌ وعليكم بذكر الله فهو شفاء ",[١٥] وبعدها يذكر قول علي بن الحسين – رضي الله عنهما: "إيّاك والغيبة فإنّها إدام كلاب الناس",[١٦] فيجعل الترتيب الطبقي أو الفرق بين السنين ظاهر في هذا النّص عدا قول الله عز وجلّ؛ إذ يبدأ بالرسول الكريم وقبله بوحيه إلى موسى – عليه السلام – الذي هو أقدم زمناً من الرسول الكريم, ويضع بعد قول الرسول قولَ عمر بن الخطاب, وعلي بن الحسين رضي الله عنهما, وهكذا يسير تباعًا مِمّا يجعل القارئ يتسلسل في بناء الفكرة عند قراءته للنصّ؛ لأنّها متسلسلة حسب السنين والأزمان, ويقول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وقوله الحق: "من كان يُؤمن بالله واليوم الآخر فليقُلْ خيراً أو ليصمت".[١٧]والكلام إن كان لا يؤدي إلى خيرٍ أو نصيحةٍ أو حكمةٍ فلا يجبُ أن يكون نميمة وغيبة فصمته يكون أفضل من كلامه. فهذه وصية لكلّ مسلم أن يحفظ لسانه من الزلل وسوء الكلام, وأن لا يتكلّم بكلام بذيء والخير يكمن في الابتعاد عن الكبائر, كما قال الله تعالى في كتابة الكريم: قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ١٨ ﴾ ق: ١٨, وقوله تعالى: قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ٣٦ ﴾ الإسراء: ٣٦ وقال محمد بن حزم: "أول من عمل الصابون سليمان ... وأول من اغتاب الناس إبليسُ لعنه الله؛ اغتاب آدم عليه السلام".[١٨]فالغيبة لم تقتصر على بني البشر, إذ وّظفها جعفر بن شمس الخلافة وأحسن توظيفها في كتابه وفي موضوعاته؛ لأنها موضوع حيّ وأجاد هنا في الشرح والاستشهاد للنصوص المختارة.

ثالثا : في ذمّ الكبر

إنّ الكبر أمر خطيرٌ فيكفي المرء أن يكون في قلبه مثقال ذرة من كبر يحرم الجنة ونعيمها؛ فعن عبدالله بن مسعود عن النبيّ – صلى الله عليه وسلّم: "لا يدخل الجنّة مَن كان في قلبه مثقال ذرّة من كبر",[١٩] فالمتكبر أول من تبحث عنه النّار يوم القيامة, قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ٧٦ ﴾ ص: ٧٦, فالكبر لم يقتصر على بني البشر فقط؛ فهذا نهج إبليس مثل بني البشر وقد تبعه طائفة من بني البشر وساروا على نهجه من تكبر على أبناء جلدتهم ومنهم من طغى وتكبر على الله سبحانه وتعالى كما فعل النمرود في قوله في سورة البقرة: قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ ٢٥٨ ﴾ البقرة: ٢٥٨وكما قال كفار قريش يوم أُمِروا بالسجود فقالوا: قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورَۢا ٦٠ ﴾ الفرقان: ٦٠, فلكل عاصٍ مُتكبّرٍ طريقته في الكبر ولكلّ سبب والنتيجة واحدة, وتكبُّر قوم فرعون على موسى في قوله تعالىقَالَ تَعَالَىٰ:﴿ فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ٤٧ ﴾ المؤمنون: ٤٧.هذه الشواهد السابقة الذكر كان من الأفضل للكاتب أن يستهلّ بآية واحدةٍ على الأقل كشاهدٍ, يكتفي بها القارئ لتوضيح النّص وعلاوةً على ذلك فهي تضفي جمالية على النّص فنراه يبدأ الاستهلال بحديث شريف ونصّه يقول: "قال اللهُ تعالى في بعضِ الكتب العظمة إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني واحدًا منها قصمتُه وأهنته",[٢٠] وقال في نفس النّص وقال النبيّ صلى الله عليه وسلّم: "لا يدخل حظيرة الفردوس متكبرٌ",[٢١] وينكر هذا الحديث محمد ناصر الدين الألباني في صحيح سنن ابن ماجة قائلاً: " قال: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: يقول الله سبحانه وتعالى:

الكبرياء ردائي والعظمة إزاري من نازعني واحداً منها ألقيتُه في جهنّم ".[٢٢]وذكر ذلك القول عن ابن عبّاس رضي الله عنه أيضاً, وذكر حديثًا آخراً للنّبي – صلى الله عليه وسلم – : "لا يدخل الجنّة مَن كان في قلبِه مثقال حبّةٍ من خردلٍ من كبر, ولا يدخل النّار مَن كان في قلبه مثقال حبّة من خردلٍ من إيمان ".[٢٣]والكبر المراد به الترفع والتآبي عن قول الحقّ والإيمان والكبرياء؛ كونه استكبر على غيره من خلق اللهِ تعالى, والعظمة كونه يتعظمه غيره, فالكبرياء صفة ذاتيّة وهي أرفع من العظمة؛ لكونها إضافية فتشبهت بالرداء الذي هو أرفع من الإزار.ويسترسل جعفر بن شمس الخلافة في رصد كلّ ما هو جميل من النّصوص والروايات والأحاديث قائلًا في رواية عن الكِبر عند المعتصم بالله ويأخذ جانبًا آخرًا في الاستشهاد فيأخذ قول سعيد بن العاص لابنه عمر: "يا بني إيّاك والكبر وليكن ما تستعن به على تركه علمك بالذي كنت والذي تصير إليه".[٢٤]وتعتبر هذه وصية جميلة من أجمل الوصايا فهي إن دلّت فتدلّ على التواضع لله ولخلقِه وعن طاعته, وبعدها يتطرق الكاتب إلى أقوال لأُناس مجهولين ونستدلّ بقوله (قال آخر) و(قال بعضُهم), و(قال آخرون), فالقارئ لا يعرف من القائل للشاهد سوى أنّ الكاتب استدلّ به على غاية, وحشرهم في درج الكلام ويستشهد بقول النظام قائلاً: "قال النظام: ما ترفع أحد من مجلسٍ إلّا لصفةٍ يجدها في نفسها".[٢٥]فالكبر أحد الأمور التي تسلب الفضائل من المرء وتكسبه الرذائل وإنّ الكبر يكسب الإنسان المقت ويمنع من التكلّف, قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿ تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ٨٣ ﴾ القصص: ٨٣ وقوله تَعَالَى:﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ١٤٦ ﴾ الأعراف: ١٤٦ وقال بعض الحكماء: " ما رأيتُ متكبّراً إلّا تحوّل ما به إليّ يعني اتكبر عليه, وقال الأحنف بن قيس: ما تكبّر أحدٌ إلّا من زلّةٍ يجدها في نفسِه ".[٢٦]

المبحث الثاني دراسة لعدد من الشواهد في الكتاب وأسلوب الكاتب

يتضمّن المبحث الثاني دراسة لعدد الشواهد التي رصدناها في كلّ موضوع من الموضوعات الثلاثة, وهل وُفّق الكاتب في اختياره للشواهد وكم عدد الشواهد في كل نص درسناه ومدى التفاوت بين الشاهد وبين الموضوع وسندرس الموضوع من جانبين:

أولاً : عدد الشواهد في الفكرة الواحدة وتوازنها وتباعدها عن فكرة الموضوع.

ثانياً : أسلوب الكاتب وأفكاره ومسألة الاستشهاد بالقدامى والمحدثين.

أولاً : عدد الشواهد في الفكرة الواحدة ومدى توازنها وتباعدها عن الفكرة في الموضوع:

إنّ عدد الشواهد قد يكون مقيّدًا أو مغلقًا ومحدّدًا بعدد وقد يكون متوازنًا أو مفتوحًا للكاتبِ, فتختلف الشواهد حسب سياق الموضوع والفكرة المدروسة أو حسب حاجة الموضوع في شواهد للتوضيح وهذا أمرٌ غير سوي؛ إذ إنّ الاستشهادات تتفاوت في الموضوع الأول (ذم الحسد) هنا جعل الكاتب المعنى للحسدِ عام لا يخصص وهذا الأمر يبتعث في القارئ زيادة نصوص لزيادة أفكار الموضوع, وإنّ أغلب النّصوص التي استشهد بها في الموضوع لم يكن يوثقها ولا يردّها إلى أصحابها إلّا بعض النّصوص, وقد يكون السبب الأرجح أنّ أكثر الأنباء أخذها عن أبناء جيله والقريبين عليه, وقد تكون متداولة في المجتمع آنذاك ولم يكن من الضروري توثيقها ونستدلّ على ذلك من قوله في النّص: (وقال آخر, وقال بعضهم, وقال آخرون) وهذا أمر يتطلّب الوقوف عنده؛ لأنّ شاعراً مثله وكاتبا وقائدا للجيش واختاره الخلفاء والأفراد مُؤدباً لأبنائهم, كان من الواجب عليه أن ينتبه إلى مسألة التوثيق وأن يكون مطلعاً وملمّا بالتراث العربيّ وغيره, وقد كان أكثر استشهاده بأقوال أناسٍ قريبين منه سنًّا ومتعاصرين معه وإن كان ذلك فهذا الأمر يحتاج إلى توثيق, وقد يحتاج ذلك لفهم تقسيم الكتاب وفق هذه المنهجية إذ إنّ أغلب النّصوص غير موثقة فيكتفي الكاتب بذكر النّص دون الرجوع إلى مرجعياته الأصلية لتوثيق أقوالهم وردّها إلى قائليها.ولم يكن طرحه للموضوع بصورةٍ تجعل القارئ يشرد بذهنه أو يسوّي بأفكاره أدراج موضوعات مختلفة كما يفعل الجاحظ في أسلوبه الاستطراد, كانت الشواهد تدور حول نفس الموضوع بحياديّةٍ تامّةٍ ولا تميل إلى الاستطراد.لقد استخدم جعفر بن شمس الخلافة في موضوع ذم الحسد العديد من الشواهد فيذكر معهم أمير المؤمنين كرم الله وجهه والحسن البصري وغيرهم من الأقوال المأثورة والبعض الآخر لم يُوثّق .واستخدم عشر شواهد في موضوعه معتمداً على القدماء والمحدثين أي أنّه لم يرجح كفة على كفة أخرى فيجعلها متوازنة متعادلة ضمن وحدة الموضوع .أمّا في ذمّ الغيبة فيسترسل الكاتب في استخدام الشواهد في مواضع مختلفة منها لتحريم ما هو محرم, أو للحث على تركه وذمّه؛ لأنّ الله تعالى حرّمه.وبلغ عدد الشواهد في هذا النص أحد عشر شاهداً مرتباً حسب الأولوية والأهمية, أمّا بالنسبة لفكرة الموضوع والشواهد فلم تتباين فالفكرة الواحدة للموضوع ثابتة والشواهد جاءت على نسق العنوان والدلالات للألفاظ تصبّ في خدمة النّص, وتوظيفها جاء سليماً على السياق اللغوي والمعاني الدلالية المنشودة؛ لتجعل القارئ يتصور فكرةً تامّةً في ذهنه خالية من النواقص وهذا ما يُحمد عليه الكاتب؛ لأنّ فكرته متكاتفة, وإنّ عدم خروج الكاتب عن إطار النّص والفكرة إلّا في تفاصيل صغيرة يجد القارئ من خلالها

متعة ولذة في القراءة من خلال التعرف على بعض الشخوص وهذا يكسب القارئ ثقافةً أدبيّة عالية.أمّا من حيث استخدامه للشواهد فلم يكن منحازًا للأقدمين على المحدثين, وإنّما كان يأخذ الشواهد الأقرب للموضوع وتوظيفها بشكل متساو؛ لصيانة وحدة الموضوع.أمّا ذم الكبر فنرى أنّ الموضوع متكامل من حيث المبنى والمعنى وتوظيف الشواهد إلّا في بعض الإخفاقات الصغيرة في عدم ذكر آية من آيِ الذكر الحكيم في مقدمة الموضوع وهذا من وجهة نظرياً يجعل الموضوع ناقصًا وأبترًا.وإنّ عدد الشواهد التي استخدمها تجاوز العشرة شواهد فقد استخدم ثلاثة عشر شاهداً, ولم يضمنها أي سورةٍ أو آية قرآنية تدلّ على أهمية الموضوع من خلالها وهذا ما يُعاب به الكاتب؛ لأنّ موضوع يتطلب توثيق نصوص قرآنية لبيان أهميته.

ثانياً / أسلوب الكاتب وأفكاره ومسألة الاستشهاد بالقدامى والمحدثين .

إنّ أسلوب الكاتب واضح وسهل وصريح لا يحتاج إلى وسيلة معرفة أو مساعدة لفهم معاني أو لبيان دلالة لفظة غامضة فهو يدخل صلب الموضوع دون تقديم له بشكل أو بآخر ويجعل بداية كلامه نصاً يستشهد به ليدلّ على موضوعه وكأنّ النصوص التي استخدمها هي أساس الموضوع فلا ينبّئ عن شيءٍ إنّما يجعل الشواهد هي الموضوع.أما أفكاره فقد تميزت بالمرونة والبساطة في أغلب الأحيان التي وظفها في كتابه هي أشياء مُستشرية في المجتمع تحتاج إلى وقفة لبيان أهمية هذه الأمور, لا يميل الكاتب إلى الإبحار في تأويلات أو خروج عن سياق الموضوع ففكرته واضحة ونبيلة وأهدافه سامية, يسعى إلى توضيح أغلب الأمور التي يراها وجوب مراعاتها في المجتمع.أما مسألة الاستشهاد بالقدامى والمحدثين فكانت تعتمد على ثقافة الكاتب وطريقة طرحه الموضوع, إذ أنّ أغلب النصوص التي استشهد بها نصوصٌ واضحة قد تكون من القرآن الكريم أو أحاديث للرسول أو أقوال مأثورة وحكم وأمثال, وأيضاً استخدامه حكما وأمثالًا للإغريق واليونان فعلى ما يبدو إنّه ذو ثقافةٍ عالية, فنراه لا يميل لكفّة على أخرى, إنّما يختار أوسطها, ولكن مسألة عدم التوثيق جعلت العمل متأرجحاً قليلا؛ إذ يذكر أقوالاً ويستشهد بها دون معرفة قائليها, فكان من الواجب أن يوضح من القائل؛ ليتسنّى للقارئ معرفة أخبار من قال هذا القول, فاكتفى جعفر بن شمس الخلافة هنا بنوع النص في الموضوع دون معرفة قائله, أو قد يكون القائل معلومًا عنده ومجهولًا عند القارئ الآن؛ لأنه لم يُوثّق, وقد يكون سبب انشغاله كقائدٍ للجيش وضيق وقته لكتابة هذ الكتاب على عجالةٍ أو عدم توثيق النّصوص ظنًّا منه أنّها معروفة ومتداولة, وعلى العموم موضوعات الكتاب مُمتعة ومفيدة يستطلع من خلالها القارئ ترجمة أفكار الكاتب وتقنينها في الذهن؛ لأنّ موضوعات الكتاب شاملة وغير محدّدة.

هوامش البحث

(١) وفيات الأعيان , ابن خلكان , تحقيق إحسان عباس , دار صادر , ج١ ص ١١٣ , الأعلام للزركلي , دار العلم للملايين: ج ,٢ ١٢٨ – ١٢٩ .

(٢) الآداب , لجعفر بن شمس الخلافة حققه محمد أمين الخانجي, دار الخانجي : ط١ ,١٩٣١ م :١٢.

(٣) ينظر ديوان جعفر بن شمس الخلافة , تحقيق سعود محمود عبد الجابر , دار المأمون للنشر والتوزيع , ط ٢٠١٣ : ٥.

(٤) ينظر : الآداب : ٤ .

(٥) ينظر وفيات الأعيان , ج١ ص ١١٢ , و ينظر : الآداب : ٤٠.

(٦) الآداب : ٤.

(٧) صحيح سنن ابن ماجة , محمد ناصر الدين الألباني ج٢ ص٤١٠ , المكتب الإسلامي , بيروت , ط١, ١٩٨٦م:٤١١.

(٨) صحيح سنن ابن ماجة , ج٢ :٤١١ .

(٩) الآداب : ٣٠ .

(١٠) المصدر نفسه: ٣١ .

(١١) المصدر نفسه : ٣١.

(١٢) المعجم الموسوعي لألفاظ القرآن الكريم وقراءاته , أحمد مختار عمر , دار سطور المعرفة , الطبعة الأولى ٢٠٠٢ : ١٩٢٧ .

(١٣) صحيح سنن ابن ماجة , ج٢ : ٤٠٠ .

(١٤) الآداب : ٣٢ .

(١٥) صحيح سنن ابن ماجة , ج٢ : ٤٠٠ .

(١٦) الآداب : ٣٢ .

(١٧) صحيح سنن ابن ماجة , ج١ :٢٠١

(١٨) المصدر نفسه, ج١ : ٢٠١.

(١٩) صحيح مسلم , مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري , مراجعة محمد فؤاد عبدالباقي , دار إحياء التراث العربي ١٩٥٤ , ج١ : ١٥٧.

(٢٠) الآداب: ٣٥.

(٢١) المصدر نفسه: ٣٥.

(٢٢) صحيح سنن ابن ماجة , ج٢ : ٤٠٥ .

(٢٣) صحيح سنن ابن ماجة, ج٢ :٤٠٥-٤٠٦.

(٢٤) الآداب : ٣٦ .

(٢٥) المصدر نفسه .

(٢٦) المستظرف , ج١ : ١٤٦ .

قائمة المصادر والمراجع

١. الآداب لجعفر بن شمس الخلافة, حققه محمد أمين الخانجي, مكتبة الخانجي, الطبعة الأولى عام ١٩٣١م.

٢. الأعلام للزركلي, دار العلم للملايين , الطبعة السابع عشرة, ٢٠٠٧م.

٣. التعريفات, للعلامة علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني, تحقيق محمد صديق المنشاوي, دار الفضيلة, القاهرة, د.ت.

٤. ديوان جعفر بن شمس الخلافة, تحقيق سعود محمود عبدالجابر, دار المأمون للنشر والتوزيع, الطبعة الأولى, ٢٠١٣م.

٥. صحيح سنن ابن ماجة, محمد ناصر الدين الألباني, المكتب الإسلامي ببيروت, دار إحياء التراث العربي, ١٩٥٤م.

٦. صحيح مسلم, مسلم بن الحجاج النيسابوري, مراجعة محمد فؤاد عبدالباقي, دار إحياء التراث ببيروت, عام ١٩٥٤م.

٧. لسان العرب, ابن منظور ت٧١١ هـ, تحقيق عبدالله علي الكبيسي وآخرين, دار المعارف القاهرة , د.ت.

٨. معجم مقاييس اللغة, لأبي الحسن أحمد بن فارس بن زكريا, تحقيق عبدالسلام هارون – دار الفكر للطباعة – ط ١٩٧٩م.

٩. مختار الصحاح, محمد بن أبي بكر الرازي – دار الرضوان , طبعة عام ٢٠٠٦م.

١٠. المعجم الموسوعي لألفاظ القرآن الكريم وقراءاته, أحمد مختار عمر, دار سطور المعرفة, الطبعة الأولى, ٢٠٠٢ م.

١١. المستطرف في كلّ فن مستظرف, شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي, تحقيق الدكتور مفيد محمد مقيمة, دار الكتب العلمية د.ت.

١٢. وفيات الأعيان, ابن خلكان, تحقيق إحسان عباس, دار صادر, د.ت.

List of sources and references

1. Al-Adab by Ja‘far ibn Shams al-Khilāfah, edited by Muhammad Amin al-Khanji, Al-Khanji Library, first edition, 1931.
2. Al-A‘lām by Al-Zirikli, Dar Al-‘Ilm Lilmalayin, seventh edition, 2007.
3. Al-Ta‘rifāt by the scholar Ali ibn Muhammad al-Sayyid al-Sharif al-Jurjani, edited by Muhammad Sadiq al-Minshawi, Dar Al-Fadilah, Cairo, n.d.
4. Diwan of Ja‘far ibn Shams al-Khilāfah, edited by Sa‘ud Mahmud Abd al-Jabir, Dar Al-Ma’mun for Publishing and Distribution, first edition, 2013.
5. Sahih Sunan Ibn Majah, Muhammad Nasir al-Din al-Albani, Islamic Office, Beirut, Dar Ihya’ al-Turath al-‘Arabi, 1954.
6. Sahih Muslim, by Muslim ibn al-Hajjaj al-Naysaburi, reviewed by Muhammad Fu’ad Abd al-Baqi, Dar Ihya’ al-Turath, Beirut, 1954.
7. Lisan al-‘Arab, by Ibn Manzur (d. 711 AH), edited by Abdullah Ali al-Kabisi and others, Dar al-Ma‘arif, Cairo.
8. Mu‘jam Maqayis al-Lughah, by Abu al-Husayn Ahmad ibn Faris ibn Zakariya, edited by Abd al-Salam Harun.
9. Mukhtar al-Sihah, by Muhammad ibn Abi Bakr al-Razi – Dar al-Ridwan, 2006 edition.
10. Al-Mustatraf fi Kulli Fann Mustazraf, by Shihab al-Din Muhammad ibn Ahmad al-Abshihi, edited by Dr. Mufid Muhammad Qumayha, Dar al-Kutub al-‘Ilmiyyah – Beirut, n.d.
11. The Book of Al-Adab by Ja‘far ibn Shams al-Khilafah: an artistic and thematic study with an analytical discussion in the chapter on satire/criticism.
12. Wafayat al-A‘yan (Deaths of Notable Figures), by Ibn